حرف الحاء

فلما التقينا بالجفار

في إغارته على بني ضبة وتميم:

[الطويل]

طَـرِبْـتَ وَهـاجَـتـكَ الـظّـبـاءُ الـسّـوَارِحُ
غَـداةَ غَـدَتْ مـنـهـا سـنـيـحٌ وَبَـارِحُ[١]
تَـغَـالَـتْ بـيَ الأَشْـوَاقُ حـتـى كـأَنّـمَـا
بـزَنـدَيـنِ فـي جـوْفـي مـن الـوَجـد قـادحُ[٢]
وَقـد كُـنـتَ تُـخْـفـي حُـبَّ سَـمْـراء، حِـقـبـة
فَـبُـحْ لانَ مـنـهـا بـالـذي أَنْـتَ بـائـحُ[٣]

(١) الظباء السوارح: هي التي ترعى من الغداة إلى الضحى. السنيح: هو ما ولاك ميامنه. البارح: هو ما ولاك مياسره. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني فالذي حرّك مشاعره ظباء تتلفت ذات اليمين وذات الشمال مثيرة إعجابه وشوقه.

(٢) الزندين، واحدهما زند، وهو ما يُشعل النار به. والذي جعل مشاعر الشاعر تتنفض من مكامنها شوق تنبّه وكأن ناراً أشعلت، فإذا بها تهبّ من رقدتها.

(٣) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٣: ٩٠، أمالي ابن الشجري ١: ٧، شرح شواهد شروح الألفية، للعيني ١: ٤٧٨، التوضيح بمضمون =

لَعَمري، لقد أعذَرْتُ لو تَعْذِرينني،
وخَشّنتِ صدراً غيبُهُ لك ناصِحُ[١]
أعاذِلَ، كم من يَوْمِ حَرْبٍ شهدتُهُ،
لَهُ منظَرٌ بادي النَّواجذ، كالحُ[٢]
فلم أرَ حيّاً صابَروا مثلَ صَبْرنا،
ولا كافحوا مثلَ الذينَ نُكافحُ[٣]
إذا شِئْتُ، لاقاني كَميٌّ مُدَجَّجٌ
على أعوجيٍّ، بالطِّعانِ مُسامحُ[٤]

= التوضيح، للشيخ خالد ١: ١٤٧، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١: ١٩٣. السمراء: معشوقته البيضاء المشربة حمرة. رحلة الشاعر مع عشق سمراء كان يداري ولا يعلن عنها زمناً، ولكن قد آن الأوان لكي يبوح بما كان يخفيه في سرّه، فعليه الآن أن يجاهر بذلك.

(١) أعذرت: قدّمت عذري. خشنتِ صدراً: ملأته غيظاً وحُنقاً. يُقسم الشاعر بأنه يقدم لها عذره على أن تبادله بقبول عذره، رغم أنها أوغرت صدره وملأته غيظاً وحنقاً علماً أنه يُضمر لها الخير والنصح والمحبَّة.

(٢) العاذل: اللائم. بادي النواجذ، كناية عن شدّة الأمر، والنواجذ: أقصى الأضراس. الكالح: العابس المُغضب. يخاطب الشاعر اللائم أنه قد مارس فن الحرب وشهد حروباً عدّة، كان فيها الموت محتّماً، فواجهه بهمّة وعزيمة بلا خوف.

(٣) كافحوا: قاتلوا بشدّة وضراوة في الحرب. يفخر الشاعر بقومه، فهم صُبُر في المعارك ويقاتلون بشراسة ويتلقون الأعداء بوجوههم ولا يتترّسون، مما يوحي بأنهم لا يهابون الموت ويستبسلون في ميادين القتال.

(٤) الكمي: البطل المدجج بالسلاح. أعوجي: حصان كريم تنسب إليه خيرة الخيول العربية. المسامحة: المساهلة في القتال وما يتطلّبه من حركات. يفتخر الشاعر بمزاياه في الحرب، فلو أراد القتال لنازله بطل شجاع كامل السلاح غير هيّاب، ولكان النصر للشاعر في آخر المطاف.

نُـزَاحِـفُ زَحْـفـاً أوْ نُـلاقـي كَـتـيـبَـةً،
تُـطـاعِـنُـنـا أوْ يَـذْعَـرُ الـسّـرْحَ صَـائـحُ[١]
فَـلَـمّـا الـتـقَـيْـنـا بـالـجِـفَـارِ تَـصَـعْـصَـعـوا،
وَرُدّتْ، عَـلـى أعْـقـابـهـنَّ، الـمَـسـالـحُ[٢]
وَسـارَتْ رِجـالٌ نـحـوَ أُخـرَى عـلـيـهـمُ الْـ
ـحَـديـدُ كـمـا تـمـشـي الـجـمـالُ الـدّوَالـحُ[٣]
إذا مـا مَـشَـوْا فـي الـسّـابـغـاتِ حَـسِـبـتَـهـمْ
سُـيُـولاً وَقـد جـاشـتْ بـهـنّ الأبـاطـحُ[٤]

---

(١) نُزاحف: نسارع إلى ملاقاة الأعداء. السرح: الماشية. لا يكتفي بالفخر بنفسه، بل يفخر أيضاً بعشيرته، فأبطالها يسارعون إلى مقارعة الأبطال في ساحات الوغى، حيث يلتقي الأبطال وتدور المعركة، ويتطاعن الأبطال حتى تحين بوادر الانتصار فإذا بفلول الأعداء يفرّون مذعورين كغنم تخلّى عنها راعيها.

(٢) الجفار: ماء لبني تميم حين دارت المعركة بين بني عبس وبني تميم، فانتصر بنو عبس على بني تميم. تصعصعوا: فرّقهم القتال وتضعضعوا. المسالح، مفردها مسلحة: المعسكر بما فيه من خيل وجنود وسلاح. كان اللقاء دموياً، فقد حالف النصر بني عبس، وارتد بنو تميم على أعقابهم، فتهاوت دفاعاتهم في عقر دارهم وذلوا، فولوا مدبرين مهزومين.

(٣) الدوالح: المثقلون بما يتسربلون به من أدرع حديدية، يصف الشاعر استعداد المتقاتلين للحرب، فقد أخذوا للحرب عدته وتسربلوا بالدروع، وزحف المتقاتلون ببطء، وكأنهم جمال حُمِّلوا أثقالاً، ومع ذلك فهم مصمّمون على القتال.

(٤) السابغات: الدروع الفضفاضة. جاشت: تدفّقت. الأباطح، مفردها أبطح: المسيل الواسع فيه حصى دقيقة. والناظر إلى زحف تلك الكتائب المقاتلة من اعتقد لأول وهلة أن سيلاً جارفاً ينهمر بقوّة من جبل فيغطي السهول والوديان.

فـأشْـرَعْـتُ رَايـاتٍ وَتَـحْـتَ ظِـلالـهـا
مـن الـقـوْم أبْـنـاءُ الـحُـرُوبِ الـمَـراجـحُ[١]
وَدُرْنـا كـمـا دارَتْ عـلـى قـطـبـهـا الـرّحـى
وَدَارَتْ عـلـى هـامِ الـرّجـالِ الـصّـفـائـحُ[٢]
بـهـاجـرَةٍ، حـتـى تَـغَـيّـبَ نُـورُهـا،
وَأقْـبـلَ لَـيْـلٌ يـقـبـضُ الـطـرْفَ سـائـحُ[٣]
تَـداعـى بَـنُـو عَـبْـسٍ بـكُـلّ مُـهَـنّـدٍ
حُـسـامٍ يُـزِيـلُ الـهـامَ وَالـصّـفُّ جـانـحُ[٤]
وَكُـلّ رُدَيْـنـيٍّ، كـأنّ سِـنَـانَـهُ
شـهـابٌ بَـدا فـي ظُـلـمـةِ الـلـيـلِ وَاضـحُ[٥]

(١) أشرعت: رفعت. المراجح: العقلاء المجرّبون. يذكر الشاعر أن بني عبس منظّمون يستعملون الرايات في حروبهم، أما أبطالهم فقد مارسوا الحروب وخبروا فنونها فهم مجرّبون يُتقنون فنون القتال.
(٢) القطب: المركز. الرحى: الطاحون. هام، واحدها هامة: رؤوس الصفائح: السيوف. وإتماماً لصورة المعركة، فقد أحدقت بنو عبس ببني تميم، ودارت الحرب دورتها، وكأنها طاحون تهرس ما يقع فتهرسه، وقوام ذلك سيوف تعلو الرؤوس فتتهاوى عن أكتاف أصحابها وتقع صرعى.
(٣) الهاجرة: شمس الظهيرة. الطرْف، بسكون الراء: النظر. سائح: أي آذن الليل بالهبوط وانتشرت الظلمة. استمرّت المعركة واشتدّ لهيبها باشتداد شمس الظهيرة حتى مالت الشمس للغروب وبدت طلائع الليل تغزو الكون.
(٤) تداعى: حث بنو عبس بعضهم بعضاً على الاستبسال في القتال وتصايحوا، وقد استعملوا سيوفاً قاطعة باترة صنعت في الهند فإذا بالرؤوس تتخلّى عن أصحابها وتتهاوى أرضاً، وإذا بالصفوف تتحطّم جرّاء شدّة القتال.
(٥) الردينيّ: الرمح المنسوب إلى ردينة زوجة سمهر القين، وقد كانا يقوّمان القنا بخط هجر. الشهاب: القبس. لم يتوقّف القتال في الليل، وكان لا =

فَخَلّوْا لَنا عُوذَ النّساءِ وَجَبّبُوا
عَبَابيدَ منهم مُسْتَقيمٌ وَجامِحُ(١)

وكلَّ كَعابٍ خَدْلَةِ السّاقِ فخمةٍ
لها مَنْصِبٌ في آلِ ضَبّةَ طامحُ(٢)

تَرَكْنَا ضِرَاراً بَينَ عَانٍ مُكَبَّلٍ
وَبَينَ قَتيلٍ غَابَ عنهُ النّوَائحُ(٣)

وَعَمْراً وَحَبّاناً تَرَكْنا بقَفْرَةٍ،
تَعُودُهُمَا فيها الضّباعُ الكَوَالحُ(٤)

يُجَرّرْنَ هاماً فَلّقَتْها رِماحُنا،
تَزَيّلُ مِنْهُنّ اللّحى وَالمَسائحُ(٥)

= بدّ من ضياء، فإذا بالقنا تحلّ محلّ الشمس فتضيء معالم المعركة.

(١) العُوذ، مفردها عائذ: النساء اللواتي مضى على وضعهن سبعة أيام، ذلك أن وليدها يعوذ بها، التجبيب: الفرار. عبابيد: مشتّتين. المستقيم: الذي يتّخذ الطريق سبيلاً. الجامح: الذي عدل عن الطريق. كانت نتيجة المعركة هزيمة نكراء فرّ المقاتلة تاركين وراءهم النسوة وضعفهن، وهم لا يلوون على شيء، منهم من سلك طريق النجاة بنفسه، ومنهم من تاه عن طريق النجاة لا يدري أين يذهب.

(٢) الكعاب: الناهدة الثديين. الخدلة: الضخمة الساقين والذراعين. طامح: سام عالٍ. وإتماماً للمشهد الحزين الذي يُؤذن بهزيمة نكراء لبني تميم، فقدً وقع في الأسراء نساء حرائر، منهن فتيات في مقتبل العمر، حديثات ناهدات، ذوات سيقان فخمة، ينتسبن إلى فرع كريم من آل ضبّة.

(٣)، (٤) العاني: الأسير. النوائح: النادبات. أسفرت المعركة عن أسرى وقتلى في ساحة المعركة، حيث انعدمت النادبات، وتركت جثث القتلى في العراء عرضة للضواري والوحوش تتناوشها وتمزّقها. ومن بين هؤلاء عمرو وحبّان مُعفّران بدمائهما في قفرة، وقد بدأت الضباع الغاضبة تنهش لحومهما.

(٥) المسائح، مفردها مسيحة: وهي ما بين الصدغين إلى الجبهة. والمنظر =

كـأنَّ مُـؤَشَّـرَ الـعَـضُـدَيْـنِ جَـحْـلاً
هَـدُوجـاً بـيـن أقـلـبـةٍ مِـلاحِ(١)

= المرعب البشع أن تلك الضباع لا تفرّق بين العزيز والعبد؛ فالكلّ مزّقتها الرماح، وراحت تلك الضواري تزيل عن الأجساد شكلها الآدمي بنهشها والفتك بها.

(١) أورد لسان العرب ١: ٦٨٩ مادة (قلب) بيتاً لم يرد في الديوان.
«وقال ابن الأعرابي: القليب ما كان فيه عين وإلّا فلا، والجمع أقلبة؛ قال عنترة يصف جُعلاً:

[الوافر]

كـأنَّ مُـؤَشَّـرَ الـعَـضُـدَيْـنِ جَـحْـلاً هَـدُوجـاً بـيـن أقـلـبـةٍ مِـلاحِ

أورد لسان العرب ١١: ١٠١ مادة (جحل) بيتاً لم يرد في الديوان.
والجحل: يعسوب النحل، والجَحْل الجُعل، وقيل: هو العظيم من اليعاسيب والجعلان؛ قال عنترة:

كَـأَنَّ مُـؤَشَّـرَ الـعَـضُـدَيـنِ جَـحْـلاً هَـدُوجـاً، بـيـن أَقْـلِـبـةٍ مِـلاحِ

يعني الجَحل، والجمع جُحول وجحلان.
أورد لسان العرب ٢: ٥٢٣ مادة (ضبح) بيتاً لم يرد في الديوان.
«والضُّباح: الصهيل. وضبحت الخيلُ في عددها تضبح ضبْحاً: أسمعت من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، وقيل: تضبح: تَنْحِمُ، وهو صوت أنفاسها إذا عدون؛ قال عنترة:

والـخـيـلُ تـعـلـمُ، حـيـن تَـضْـ ـبَحُ في حِياضِ الموتِ ضَبْحا

قوله: «والخيل تعلم» كذا في الأصل والصحاح، وأنشده صاحب الكشاف: «والخيل تكدح».
أورد لسان العرب ١٢: ١٠٨ مادة (جمم) بيتاً لم يرد في الديوان. وقال عنترة:

[الوافر]

أَلَـمْ تـعـلـمْ، لـحـاك الـلَّـه! أَنِّـي أجِـمّ إذا الـتـقـيْـتُ ذوي الـرمـاحِ

والجمم أن تُسَكِّن اللام من مفاعلتن فيصير مفاعيلن، ثم تُسْقِط الياء فيبقى مفاعِلُنْ، ثم تخرِمهُ فيبقى فاعلن.